

تحولات الممثل من المقاومة إلى نجومية قصص الهروب

زكريا الزبيدي

وقصة النفق الفلسطيني الطويل



مسار درامي بنهاية غير سعيدة



جاذبية الزبيدي تتجاوز الفلسطينيين إلى الإسرائيليين أنفسهم

الحجارة على الجنود الإسرائيليين، وجرى اعتقاله أول مرة بعد عامين من ذلك التاريخ، بتهمة إلقاء قنابل حارقة على الجيش الإسرائيلي وتم الحكم عليه بربيع سنوات ونصف السنة سجنًا. لتبدأ مغامرته مع محاولات الاغتيال التي نجا من أربع منها، أبرزها كان في العام 2004، حين قتلت إسرائيل 5 فلسطينيين بعد استهداف مركبة كان يُعتقد أن الزبيدي فيها. وربما تعكس

أطروحة للماجستير للتحول في فكر الزبيدي، الذي بات يستشهد بهجرة النبي من مكة إلى المدينة مسقطا إياها على القضية الفلسطينية.



وفاة الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، وإعلان الرئيس محمود عباس حل كتائب «شهداء الأقصى»، جعلًا من الزبيدي عاطلا عن العمل

في أطروحته للماجستير بجامعة بيرزيت، يلقب الزبيدي نفسه بـ«التنين» الذي يهزم «الصيد»، ويقول عمه جمال الزبيدي، إنه «شعب على مقاومة الاحتلال، لا يعرف القيد، واجه الآليات الإسرائيلية بالحجارة، ثم بالسلاح، قاد كتائب الأقصى، ونفذ عمليات بطولية».

سبق وأن أصيب بالرصاص الإسرائيلي في عمر 13 عامًا، عندما التقى

إلى جانب الميليشيات الإيرانية في سوريا دعماً لنظام بشار الأسد. ثلاث سنوات قضاها الزبيدي قبل أن يخطط للهروب، ولا يعرف أحد كم تغير خلالها فكراً، وكانه كان يعبر نفقًا آخر غير الذي سيخفره مع رفاقه إلى الخارج. أيام قليلة وستعلن إسرائيل إلقاء القبض على الزبيدي، إلى جانب الناشط في حركة «الجهاد الإسلامي» محمد العارضة. بعد أن رصدتهما الجيش في منطقة، في الشمال، وكانت الشرطة الإسرائيلية أعلنت، قبل ذلك أنها عثرت على أول اثنين من الأسرى الفارين وهما يعقوب قادري، ومحمود عارضة.



التنين في المصيدة

صدر عفو عام عن معتقلي حركة فتح في العام 2007 وشمل الزبيدي به، فخرج من السجن لينضم إلى «مسرح الحرية»، الذي أسسه جوليانو، ابن إيرنا مير خميس، وكان الهدف الملحن هو كما قال الزبيدي «نقل القضية الفلسطينية إلى الشعب من خلال المسرح».

غير أن إسرائيل عادت وشطبت العفو الذي منحته للزبيدي، واعتقلته من جديد، بعد إطلاق نار أمام منزل محافظ جنين، وأفرجت عنه بعد أشهر نفذ خلالها إضراباً عن الطعام. وانصرف إلى العمل في مؤسسات السلطة الفلسطينية، ودرس العلوم السياسية في جامعة بيرزيت في الضفة الغربية. وبدأ أنه قد تغير والقى السلاح.

في العام 2019 ألقى الإسرائيليون القبض على الزبيدي مجدداً، بتهمة إطلاق النار على حافلات إسرائيلية في الضفة الغربية، والتخطيط لهجمات كانت ستنفذ، وتم زجه في سجن جلبوع قرب جنين. ووصفه يتسحاق إيلان الضابط السابق في «الشاباك» أنه «قط شوارع، لطالما حاولنا الإمساك به، لكنه أفلت من أيدينا، والآن أعيد اعتقاله لانخراطه مرة أخرى في أنشطة إرهابية».

في زنتائه في جلبوع، كان شريكاً لخمس سجناء ينتمون إلى حركة الجهاد الإسلامي التي أسسها رمضان شلح والتي أعلنت انضمامها إلى المحور الإيراني، وشاركت في القتال

إسرائيل تعرف أن شخصية من طراز الزبيدي من الممكن أن تتحول إلى أيقونة إن تركت في الخارج، بعيداً عن السجن، غير أنها تعرف أيضاً أن المشهد الفلسطيني بالمجمل بات مشهداً مضطرباً ضيق فيه كثيرون البوصلة.

الجنرال الإسرائيلي المتقاعد يوسي كوبرفاسر يعتبر الزبيدي نوعاً ما. فقد لعب كل الأدوار، على حد قوله، قبل أن ترصد التقارير اضمحلال صورة الزبيدي من الإعلام في السنوات الأخيرة، ومن ثم عودته عبر حكاية النفق

فلا فرق إن كانوا في السجن أو خارجه لأن خطاهم ستقودهم إلى تحطيم صورتهم بأيديهم. وهي بالمقابل تصنف الزبيدي كإرهابي مسؤول عن عمليات انتحارية وهجمات استهدفت مدنيين.

عن ذلك يقول الجنرال الإسرائيلي المتقاعد يوسي كوبرفاسر «من نواح عديدة، يعتبر الزبيدي طفل الملصق للإسرائيليين لحملة الإرهاب الفلسطينية في الانتفاضة الثانية. إنه فورست غامب، نوعاً ما، فقد لعب كل الأدوار». وترصد التقارير اضمحلال صورة الزبيدي من الإعلام في السنوات الأخيرة، ومن ثم عودته عبر حكاية النفق.

الحاكم الفعلي لجنين

مع غياب دور القيادات التاريخية للحركة الفلسطينية، أصبح الزبيدي قائداً لـ«كتائب شهداء الأقصى»، إحدى الأزرع العسكرية المتبقية من حركة فتح، في مخيم جنين الذي شهد في العام 2002 صدامات عنيفة مع الجيش الإسرائيلي، وخلفت على ملامح الزبيدي علامات سيبقى يحملها معه في الأعوام التالية. بعد أن بات الإعلام الإسرائيلي يلقب الزبيدي بـ«الحاكم الفعلي لجنين».

وقد استمر ذلك حتى وفاة الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، حين أعلن الرئيس محمود عباس، حل كتائب «شهداء الأقصى». فبات الزبيدي عاطلاً عن العمل. الاستثمار في صورة فلسطيني الداخل يبقى مادة شهية للإعلام

لندن - لم تنته عملية الهروب للسجين الفلسطيني زكريا الزبيدي نهائياً سعيدة كما حدث في فيلم هوليوود الشهير «الخلاص من شوشانك»، بعد أن قامت الشرطة الإسرائيلية بضبطه مع ثلاثة آخرين ممن شاركوه عملية الهروب والفرار المذهلة من سجن إسرائيلي محصن.

تمكن الزبيدي خلال الأعوام الماضية، من لفت الأنظار إليه، عبر ظهوره في مراحل مختلفة حاملاً مرة البندقية، ومرة رايات متشدة، وفي أحيان أخرى كان يدعو إلى ما سماها «ثورة ثقافية». وأحدث تلك الطلقات البرقاع كانت مغامرة حفر نفق يفضي إلى خارج سجن شديد الحراسة مع خمسة نشطاء فلسطينيين آخرين.

قصة النفق هذه ليست جديدة على المنطقة، فقد بدأ سجناء سياسيون عراقيون بحفر نفق ذات يوم من أيام مايو عام 1967 واستمروا بالحفر حتى ليلية السابع من نوفمبر من العام ذاته، وأخيراً سهل لهم الهروب من سجن الحلة، وكان من بين الهاربين حينها الشاعر مظفر النواب الذي بروي الحكاية بطريقة شيقة حين يصف اللحظة التي فتحوا فيها آخر طبقة من طبقات النفق حين ظهرت السماء، يقول النواب إن تلك القطعة الصغيرة من السماء كانت أجمل سماء رآها في حياته.

تحولات أبناء الانتفاضة

ولد الزبيدي في مخيم جنين شمالي الضفة الغربية، بين سبعة أشقاء، وعاش يتيم الأب، ومثله مثل الجيل الذي شهد انتفاضة الثمانينات، اندفع في حالة من النضال المستمر، نقلته من عقيدة إلى أخرى، ثم جاءت عملية السلام لتكبل أيدي أولئك الذين يصفهم البعض بالفوضويين، غير المنضبطين وفق أجندة القيادات السياسية. وكان من الطبيعي أن تقود تلك التناقضات إلى العنف، فحمل الزبيدي ورفاقه السلاح في الانتفاضة الثانية التي جعلته يخسر والدته وشقيقه.

أطروحته للماجستير تعكس درجة التحول في فكر الزبيدي، الذي انتقل من المسرح والفنون حتى بات يستشهد بهجرة النبي من مكة إلى المدينة مسقطاً إياها على القضية الفلسطينية